Leon Carl Brown

International Politics and the Middle East: Old Rules, Dangerous Game

السياسة الدولية والشرق الاوسط: قواعد قديمة ولعبة خطيرة

Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1984. 363 p.

د. غسان سلامة

استاذ مساعد في قسم العلوم السياسية في الجامعة الاميركية - بيروت.

ليس كارل براون مجهولاً لا كصاحب كتاب **تونس ايام الباي احمد**، ولا كمدير برنامج الشرق الادنى في جامعة برنستون، ولكن الضجة الواسعة التي أثارها والدعاية الضخمة التي رافقت صدور كتابه هذا تبدو، بعد قراءة الكتاب غير مبررة.

جاء براون الى مصر سنة ١٩٧٣، واتته فكرة مفادها ان انور السادات دفع جيشه للحرب في ٦ تشرين الاول/ اكتوبر لا للانتصار - وهذا كان غير ممكن في ضوء ميزان القوى العسكري يومها - بل لكي يستثير ردة فعل، ومن ثم تدخلاً دولياً لمصلحته في النزاع. هذه الفرضية، يرى الكاتب انها تنسحب على مسلك قادة الشرق الاوسط خلال القرنين الماضيين، بكلمة: هم ضعاف جداً وقوتهم الوحيدة تكمن في قدرتهم على دفع الدول العظمى للتدخل في منطقتهم. من هنا الاطروحة الاساسية: إن العلاقات الدولية هي مفتاح تاريخ الشرق الاوسط الحديث. مما يعني لمن لم يفهم: ان التطورات المحلية، والارادة الذاتية، والتطورات المجتمعية اقل اهمية مما يعتقد البعض. العنصر المؤثر هو العنصر الخارجي، وبالذات تدخل القوى العظمى في المنطقة.

خصوصية المنطقة هي اذن في قابليتها للتدخل الخارجي. من هنا مقولة الكاتب المكمّلة: ليس من منطقة في العالم دخلت في لعبة الامم كالشرق الاوسط، منطقتنا الحزينة، القليلة الحظ. هنا التدخل دائم وعميق وواسع. المأساة طبعاً لها وجه آخر: لم تستطع اية دولة عظمى، في اية مرحلة، ان تستفرد بالمنطقة فتجعل منها منطقة نفوذ خاصة بها، عصية على القوى الاخرى. من هنا الحروب - الناتج الطبيعي للمشاريع غير الناجحة الا جزئياً - لأن الدول العظمى كلها قد حاولت في يوم من الايام ان تجعل منّا تخوماً تابعة بصورة حصرية لها. المقارنة الممكنة مع منطقة اخرى هي مع الصين، ولكن الكاتب يستدرك فيقول ان الصين قد استرجعت وحدتها خلال هذا القرن بينما الشرق الاوسط زادت تجزئته وبالتالي قابليته للتدخل. هذا الحسم المتسرّع للمقارنة لا يزعج الكاتب، كما لا يزعجه حسم اكثر تسرعاً للمقارنة مع افريقيا، حيث قام الخارج ببناء وحدات سياسية حديثة بينما هو اكتفى في منطقتنا بالتكيف مع الوحدات القائمة. «الشرق الاوسط هو

اكثر النظم الاقليمية اختراقاً». والنظام الاقليمي المخترق هو ذلك النظام الذي يتدخل فيه الخارج بصورة تكبّله، دون ان يقوى الخارج على امتصاصه واستيعابه تماماً. فيبقى اسير الخارج دون ان يصبح جزءاً منه. من هنا الخلاصة: ما زال الشرق الاوسط مريضاً «بالمسألة الشرقية» التي دخلت حمّاها الى جسمه في اواخر القرن الثامن عشر ولم تخرج منه حتى الساعة.

ولكي يرتاح الكاتب لمقولته، لا يأنف عن استبعاد المغرب وموريتانيا من «شرق اوسطه». لماذا؟ لأن اقصى المغرب لم يكن جزءاً من امبراطورية بني عثمان. فالشرق الاوسط ليس الا صورة اليوم عن تلك السلطنة الغابرة، لا المغرب منها ولا ايران. على رغم ارتباط المغرب الوثيق بدنيا العرب وكونه، لغوياً على اقل الاقل، جزءاً منه. وعلى رغم ما يجمع منطقتنا بايران سلماً وحرباً. هي السلطنة شاغلة الكاتب ولها ثقافة سياسية تقوم على الموزاييك (الفكرة الرائجة في الخمسينات اتذكرون ايام كارلتون كون والسوسيولوجيا الامريكية؟). اما المشاعر القومية بدءاً بالتركية منها فسهل القول في هذا السياق انها بالذات وليدة الخارج. الخارج دائماً الخارج! وتباً لأي داخل يأنف من التأقلم مع هذا الاطار! هذا الانبهار المتطرف بالخارج يحمل الكاتب الى اختراع تعبير «الثقافة السياسية الديبلوماسية» للدلالة على مدى تأثرنا بالقناصل والسفراء والدول، ووزارات المستعمرات في لندن وباريس وبرلين.

«المسألة الشرقية» بدأت بصورة تقليدية (١٧٧٤ ـ ١٩٢٣)، بوادرها نشأت في القرن السابع عشر مع فشل متكرر على جبهات اوروبا الوسطى وغابت تلك البوادر مع انتصارات القرن الثامن عشر. البدء الحقيقي، بنظر الكاتب، هو سنة ١٧٧٤ مع اتفاقية الصلح الروسية ـ العثمانية، لأنه بعد هذه المعاهدة، أصبحت العلاقات بين العثمانيين والقوى الاوروبية المختلفة دائماً لمصلحة الثانية. فتكاثرت المشاريع الآيلة لاختراق صلب السلطنة.

من هو محمد علي في هذا السياق: زعيم محلي نشأ ضمن الاطار العثماني نفسه ونجح، ولكن القوى الاوروبية استطاعت لجمه وضربه وتطويقه واعادته الى حجمه. اما استقلال اليونان، فهو ناتج عن الافكار القومية الاوروبية، واوروبا قامت «بحملة صليبية علمانية» لتثبيته. السلطنة ضعيفة ازاء هذه التحركات، وهي اصبحت «الرجل المريض» نفسه، ولكنه مريض فحسب ولا يموت، لأن لديه بعضاً من هامش للمناورة ينتج بالذات عن خلافات الاوروبيين الداخلية. على اي حال، كل الاطراف الخارجية كانت تتصرف منذ نهاية القرن الثامن عشر وكأن نهاية السلطنة محتومة. من هنا بعض تفهم اولي لمحمد علي، من هنا انتفاضة الصرب وقائدهم جورج كان يصر على ان تتولى قوى اوروبا ضمان اي اتفاق بينه وبين اسطنبول واستقلال اليونان الذي دعمته مصارف لندن وايده شعراؤها. ولم يستطع الاوروبيون فعلاً حل تناقضاتهم ومنها التالي: كيف الابقاء على السلطنة درعاً في وجه المطامع الروسية من جهة، وتأييد القومية اليونانية من جهة اخرى؟ ولكن «الرجل المريض»، الذي اضطر للقبول باستقلال مصر وتونس الفعلي، كان ما زال قادراً على التحرك بقوة وبفعالية في اماكن اخرى: في ليبيا مثلاً وفي الهلال الخصيب، وفي كردستان. هنا المساعدة الخارجية للسلطنة ممكنة. فالسلطان مطلوب منه ان يقضي على الحركات الانفصالية احياناً، والقبول بأخرى احياناً أخرى. ولكن الخط الذي يبدو محصلة التدخل الاجنبي لا يوضحه كارل براون على شفافيته: وحدة العثمانيين هشة، وساقطة حتماً، لذلك يقوم الغرب باعطائها المسكّنات الموضعية. بينما الغرب الاعظم (اي بريطانيا اساساً) يقف

بحزم في وجه اي مشروع توحيدي بديل (مثلاً محمد علي).

ذهبت السلطنة وبقيت المسألة الشرقية. انفرط عقد الشرق الاوسط على كيانات متعددة وعلى دول عظمى متعددة ايضاً. لا تهم كارل براون للاسف مسألة نشوء الكيانات من حيث توفر ام عدم توفر عناصرها المحلية، ولا تهمه وحدة الهند في مقابل تشرذم منطقتنا. هو يرى فقط ان اللعبة البلقانية انتقلت من البلقان نفسه الى الهلال الخصيب. والفرضية هنا هي التالية: بقدر ما انت متطور بالمقارنة مع الغرب، بقدر ما ان استقلالك مهدد. من هنا كان من السهل نشوء قوى متخلفة ولكن مستقلة في الجزيرة العربية مثلاً وفي ليبيا. ولم يكن هذا ممكناً في الهلال الخصيب. ويعطي الكاتب بعض التفاصيل المفيدة ـ وان لم تكن الجديدة ـ عن الخلافات في لندن حول مستقبل الكيانات العربية، بين معتبرها تكاد تكون حديثة ومؤيد لمشاعرها الوطنية وبين قائل بأنها كالهند نفسها يقتضي حكمها استعمارياً. هو التدخل الفرنسي الدائم الذي سوف يجبر البريطانيين على النظر للمسألة العربية ككل في مواجهة المشاريع الباريسية الصغيرة، ثم التدخل الالماني في مصر والعراق خصيصاً وبين ١٩٤٠ و١٩٤٢ الذي سوف يطلق الاستقلال من عقاله ويجعله مقبولاً اوروبياً.

ومن استقلال الاربعينات الى عبد الناصر. لماذا فشل عبد الناصر في تحقيق الوحدة العربية التي كان يصبو اليها؟ الجواب اصبح معروفاً: لأنه هو الآخر كان ضحية استمرار المسألة الشرقية. كيف؟ لم تكن لعبد الناصر القوة للانتصار على اسرائيل، لكنه كان قادراً على تحييد القوى العربية المناهضة له، لأن الغرب يؤيدها بينما يؤيد اسرائيل ايضاً. لكي يهتم الغرب بعبد الناصر، كان عليه التقارب مع الاتحاد السوفياتي، ومن ثم القبول بدعم موسكو لمن هو اكثر تطرفاً منه، او اكثر قرباً من السوفيات ايديولوجياً. من هنا قيام المزايدة عليه من على يساره، وبسبب التدخل الدولي الذي كان هو بذاته من مؤيديه الاوائل.

بقي الزمن المعاصر: محمد علي وعبد الناصر، بالمرستون وجون فوستر دالاس، القيصر نيقولا الاول وليونيد بريجنيف لعبوا اللعبة بالطريقة ذاتها، واسم اللعبة: المسألة الشرقية. من هنا امثلة من القرن العشرين اقتبسها الكاتب من ايزنهاور وجونسون ونيكسون ثم قارنها بأمثلة من القرن التاسع عشر للقول بأن القوى الخارجية حاولت دائماً تبرير تدخلها بوصف ما يحصل في الشرق الاوسط على انه مجرد نتيجة لتدخل قوة عظمى اخرى. ولاحظ ايضاً استمرار عدد من المسائل الفرعية الحساسة عبر التاريخ، كمسألة استيراد الاسلحة، والتدخل الديبلوماسي، ناهيك عن الامم المتحدة التي تلعب اليوم دور القوى الاوروبية المجتمعة سابقاً في فيينا وبرلين وفرساي في مؤتمرات اصبحت تاريخية.

وفي الخاتمة فقط والى حد ما، وعلى الرغم من اندفاعه الذاتي، يحاول الكاتب ان يصحّح المقولة الاساسية الواردة في كتابه عن تشابه ازمات القرنين التاسع عشر والعشرين بالقول ان هناك عناصر جديدة دخلت مؤخراً في المعادلة وانما ليمر عليها بسطور قليلة تلميحية لا تحليلية. وكأن الكاتب نفسه شعر وهو يكتب الاسطر الاخيرة، انه اندفع اكثر من اللازم في تأييد فرضيته ونواحي ضعفها واضحة. فالكاتب يدير قفاه لماركس، لكي لا اقول لهيغل، ويحاول ان يثبت مقولة ان الزمن في الشرق قد توقف. هكذا توقف! لا شيء حقيقة جديد يحصل: لا افكار جديدة، لا تحولات جديدة لا رجال جدد. اللعبة ذاتها تلعب من جديد، والنبيذ نفسه يعبأ في قنانٍ جديدة، او هي القناني نفسها ولكن فيها خمر آخر. وكأن الامور الجليلة غائبة، وكأن

ليس انشاء دولة اسرائيل امراً مستحدثاً لا علاقة له بماضي المنطقة الحديث، وكأن إحلال صراع القوى المعاصرة بدل اللعبة الاستعمارية القديمة لم يغيّر من اللعبة شيئاً.

ونواحي الضعف الاخرى واضحة: احتقار شديد منظم وعميق للعناصر المحلية واعتبارها تافهة. ادارة الظهر لنشوء القوميات واعتباره مجرد فيروس مرضي حملته اوروبا ولا معنى حقيقي له في الشرق. عدم الانتباه الى التطورات الاستثنائية التي حصلت وتحصل في بنية المجتمع العربي. والتركيز بالمقابل على اللعبة الديبلوماسية كالمفتاح الاوحد لفهم المنطقة.

والضعف واضح في وضعه لخريطة شرق اوسطية مجتزأة، في تنبّهه لأهمية العناصر الاقليمية دون التفرقة ولو البدائية بين حروب التحرر (الموجهة ضد الاجنبي كحرب الجزائر) والحروب الاقليمية فعلاً (كحرب الجزائر مع المغرب، ام الحرب العراقية ـ الايرانية).

لكن الفرضية الاساسية لا يمكن تجاهلها، لا بل اننا نقول مع الكاتب بصحتها، والّا لكنا وضعنا الكتاب جانباً ونسيناه: المثير للقلق فعلاً هو الاختراق الدولي الواسع، المتكرر والمتجدد، المتزايد والمتعمق للمنطقة العربية الذي يجعل من استقلالية عبد الناصر حدثاً عابراً، ومن الروح الاستقلالية عموماً امراً يكاد يكون اسطورياً. وكتاب براون لا يريحني ولا يزيح الثقل عني حين يحاول، بنجاح الى حد ما، ان يثبت لي، ان ابي وجدّي، والاجيال التي سبقتني واجهت المعضلة نفسها ولم تقدر على حلّها. هل التبعية قدرنا، والى ما لا نهاية؟

هنا فائدة كتاب كارل براون وهنا بالذات خطره. فإن كان الامر الجلل يحل ويربط في اروقة السفارات، وفي دهاليز لعبة الامم، وإن اخذنا بهذا المنطق بصورة مطلقة فوداعاً للعناصر الذاتية، ووداعاً للمعطيات المحلية. وان انت ودّعت هذه وتلك، فإنك، بالمناسبة نفسها، تكون قد ودّعت العنصر الاساسي في اي شعور وطني ومفاده انك مستعد للعمل والجهاد والكد ربما للتضحية بالذات، لأن لهذا كله تأثيراً ما، قد يكون في اللحظات الخطيرة حاسماً، على مجرى الامور. وان كان في احتقار النظام الدولي وقوانينه، والذي يدفعنا اليه اليوم عدد من المفكرين الاصوليين المنغلقين على الذات قدر لا بأس به من الحماقة السياسية، فإن منطق براون، بالمقابل، إن قبل على إطلاقه، يحملك الى الاستكانة الوادعة، والى الانتظار الطويل ريثما يتوقف تكالب القوى العظمى عليك. اولئك تنقصهم الواقعية، ولو البدائية، وهذا يدفعك للقنوط، والرشد في مكان ما على الارجح، بين هذا واولئك □